مظاهر الصراع في النص الشعري الجاهلي

The manifestations of conflict in the pre-Islamic poetic text

د. سعدية حسين البرغثي. أستاذ مشارك بقسم اللغة العربية. كلية التربية بنغازي. جامعة بنغازي.

Dr: Saadia H. Al-Barghathi. Associate Professor, Department of Arabic Language. Benghazi College of Education. Benghazi University.

Email:sadiabarghaty@gmail.com

الملخص : يسعى هذا البحث إلى التنقير عن أهم مظاهر الصراع في النص الشعري الجاهلي التي استند إليها الشّاعر الجاهلي حيث استطاع ببراعته أن يكون لنا صوراً متعددة لمظاهر الصراع حيث أخذ جانبين: جانب داخلي (نفسي) من جهة، وجانب خارجي (اجتماعي – قبلي – طبقي) من جهة ثانية، فالشّاعر يعاني صراعاً وحالة نفسية متأزمة حيث أسهم في إبراز صراعه بشكل مكثف في لوحات فنية تعبّر عن انفعالات الإنسان ومشاعره، وتكشف براعته وقدرته وحسن ذوقه على التأثير في المتلقي بألفاظ جميلة، ومعانٍ جديدة .

الكلمات الداله: المظاهر، الصراع، النص، الشعر الجاهلي.

Abstract

This research seeks to diminish the most important aspects of the conflict in the pre-Islamic poetic text on which the pre-Islamic poet relied, as he was able with his ingenuity to have multiple images of the manifestations of the conflict as he took two sides: an internal (psychological) side on the one hand, and an external side (social - tribal - class) from On the other hand, the poet suffers from a conflict and a crisis psychological state, as he contributed to highlighting his struggle intensely in artistic paintings that express human emotions and feelings, and reveal his ingenuity, ability and good taste to influence the recipient with beautiful words and new meanings.

Key words: appearances, conflict, text, pre-Islamic poetry.

المقدمة : الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً، والصلاة والسلام على أشرف خلق الله سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين.

إنّ الغاية من هذا البحث الوقوف على ماهية الصراع في الشعر الجاهلي، والتعرف عليه من حيث هو ظاهرة إنسانية وجودية لها جذورها الضاربة في عمق الحياة الجاهلية، والمعروف أنّ الإحساس بالصراع النفسي يدخل في إطار العواطف الإنسانية لذلك اعتمدت على النص الشعري الجاهلي بصفته وثيقة ومستنداً أساسياً للوقوف على حقيقة هذه القضية وتقصي ملامحها وتجلياتها.

وفي سبيل تحقيق هذه الغاية رجعت لمراجع عدة تناولت أطرافاً من موضوع البحث مثل: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي: د. يوسف خليف، صوت الشاعر القديم: د. مصطفى ناصف، الاغتراب في الشعر العربي قبل الإسلام د. صاحب خليل إبراهيم، وغيرها من الدراسات التي كانت عوناً في تذليل مشاق البحث.

كما اعتمدت في البحث على المنهج الوصفي التحليلي، وذلك بجمع الشواهد الشعرية وتحليلها.

كما اعتمدت على دواوين شعراء العصر الجاهلي، إذ حاولت اختيار أكثر النصوص مناسبة لهذا الموضوع، وأردت أن يكون الاختيار متنوّعاً ومتعدداً بتنوع الشعراء وتعددهم، فقد جاء البحث موزعاً إلى مقدمة، وتمهيد ومبحثين وخاتمة وثبت المصادر والمراجع .

بعد التمهيد يأتي المبحث الأول حاملاً عنوان الصراع الداخلي (النفسي) يعالج هذا المبحث أسباب الصراع النفسي وتعدده لعوامل شتى متباينة منها هواجس الهموم والكدر، وحرمان نعمة البصر، والظلم والحرمان، وفقدان الحبيبة وخراب الديار ومحنة الأسر واليأس، وعذل الزوجة اللائمة والضغوط النفسية والممارسات التي لا يقرّها الشاعر بل يرفضها .

أما المبحث الثاني فقد جاء لاستكمال صورة الصراع الخارجي في ظل القبيلة والعلائق الاجتماعية وبنيتها التركيبية من خلال التعامل المباشر للشاعر مع قومه ومعاناته من ظلمهم .

وبيّنت الواقع الاجتماعي وما ينضوي تحته من تفاصيل، ويركّز هذا المبحث على شعر الصراع الذي تعرض له فئة حرمت حق الانتماء لأسباب عدة، إما لسواد اللون والعبودية أو نتيجة حرمان من العدالة الإنسانية كما حدث للصعاليك عندما نبذتهم قبائلهم .

كما تناول المبحث الثالث الصورة الفنية

أما الخاتمة فقد ذكرت فيها أهم النتائج لتي توصل إليها البحث، وأخيراً المصادر والمراجع.

وبعد أن اكتملت مادة البحث فإنني لا أدّعي لدراستي هذه الكمال، فإنما الكمال للخالق وحده، ولكن هذا جهدي الذي لم أدخر منه شيئاً في سبيل إخراج البحث بهذا الشكل المتواضع الذي صار عليه.

التمهيد : إنّ هذا البحث يركز على قضية الصراع الإنساني في الشعر الجاهلي، فقد عبّر الشاعر الجاهلي منذ نشأته الأولى بواسطة الشعر عن وجدانه وعما يختلج في نفسه من ألم وغبطة، ومن فرح وترح، ومن إحساس بالسعادة وشعور بالصراع والإحباط، فالبوادر الأولى للصراع تبدأ في مخاطبة الذات ودعوتها إلى عدم الانسجام مع كل ما يحيط بها .

ومصطلح الصراع من المصطلحات الفضفاضة التي تحتاج لتجديد الصراع وتتسع دائرة معناه ليشمل حمولات تتشابك في علاقتها مع الذات .

وعند النظر في المعاجم اللغوية لتعريف الصراع نجد أنّ الصراع عند ابن منظور في لسان العرب بمعنى: " الصَرْعُ: الطَّرْحُ بالأَرض، وخَصَّه في التهذيب بالإنسان، صارَعَه فصَرَعَه يَصْرَعُه صَرْعاً وصِرْعاً، فهو مصروعٌ وصريعٌ، والجمع صَرْعَى.

والصِّراعُ والمُصارَعةُ: مُعالَجَتُهما أَيُّهُما يَصْرَعُ صاحِبَه " (ابن منظور، 1956: مادة صرع 2 / 434) .

والصُّرَعةُ: الحلِيمُ عند الغَضَبِ لأَنّ حِلْمَه يَصْرَعُ غَضَبَه على ضِدّ معنى قولهم: الغَضَبُ غُولُ الحِلْمِ. وفي الحديث: الصُّرَعةُ، بضم الصاد وفتح الراء مثل الهُمَزةِ، الرجلُ الحليمُ عِندَ الغَضَب، وهو المبالغ في الصِّراعِ الذي لا يُغْلَبُ فَنَقَلَه إِلى الذي يَغْلِبُ نفسه عند الغضب ويَقْهَرُها، فإنه إذا مَلَكها كان قد قَهَرَ أَقْوى أَعْدائِه وشَرَّ خُصُومِه، ولذلك قالَ: أَعْدَى عَدُوٍّ لك نفسُك التي بين جَنْبَيْكَ، وهذا من الأَلفاظ التي نقَلها اللغويون عن وضعها لِضَرْبٍ من التَّوَسُّع والمجاز، وهو من فصيح الكلام لأَنه لما كان الغضبانُ بحالة شديدة من الغَيْظِ، وقد ثارَتْ عليه شهوة الغضب فَقَهَرها بحلمه وصَرَعَها بثباته، كان كالصُّرَعَةِ الذي يَصْرَعُ الرجالَ ولا يَصْرَعُونه " (المصدر نفسه، 1956: مادة صرع).

وهذا المعنى المراد من هذا البحث، لأنّ الصراع بشكل عام ظاهرة اجتماعية تعكس حالة من عدم الارتياح أو الضغط النفسي الناتج عن عدم التوافق بين الشاعر وقومه في ظل المظالم التي سلطت عليه، فهو يتمرّد على واقعه الأليم ويرفض الاستسلام له، مذكراً ما حفلت به حياته من صراع مرير، هادفاً إلى تحقيق معادلة الحالة السلبية التي يعيش فيها لينتهي إلى تقرير حقيقة يستدعيها موقفه من صعوبة الحياة .

فقد رسم شعره صورة أشكال الصراع المختلفة التي عاشها في ذلك العصر من صراع (داخلي) نفسي إلى صراع (خارجي) اجتماعي وصرع قبلي بينه وبين قومه، فهو يعاني من حالة نفسية متأزمة، واتخذ من هذا الصراع مشاهد تحمل صوراً شتى في قصائده وبرزت نماذج تعكس الجوانب النفسية والعاطفية التي يمرّ بها ؛ لذلك نراه يعزف على وتر حزين، فضلاً عن الجانب الفني فيصوّر لنا مشاهد حيّة نسمعها من نبضات قلبه، فالحديث عن الحالة النفسية التي يعانيها وصراعه الداخلي يشكل لوحات مختلفة من خلال شعره عبر الصورة العامة مما يتيح له أن يقف في رحبة من التصوير الدقيق متأملاً حياته الصعبة معبراً عما تتطلبه المواقف المختلفة من تعبير، مجسداً هواجسه وما يعتريه من إحساس مؤلم عبر الصراع الذي ينسجه للصورة بعامة، مستعيناً بخبرته وملاحظته الدقيقة لأحواله، تمثلت هذه الصورة في أبياته الشعرية التي امتلكت قدرة على إثارة المتلقي لما يشكله صراعه من صور لها مدلولاً في الإثارة والانفعال لما تعكسه من انفعالات نفسية حادة يجسدها شعراً يخترق الأسماع لتعيها القلوب، فهو شعر يعبّر عن الألم المحض الذي يعتمل بأعماق الإنسان فيؤثر في النفوس ؛ حتى لتتأثر الحواس الأخر لتشارك الشاعر المتألم ألمه فانفعالات الشاعر الحادة لها أثر نفسي في نظم شعره، حتى يصل إلى قمة التوتر في استكناه تفاصيل حسية تثري الاحتدام النفسي في أعماقه فبرزت الصورة التي كان يروم الشعر إبرازها.

المبحث الأول: الصراع الداخلي (النفسي)

يعدّ الصراع النفسي أقسى أنواع الصراع وأشدها إيلاماً، وقد تعرض له الشعراء بشكل مباشر أو غير مباشر إما بفعل الإنسان، وإما خارج إرادته ولا سيما العبودية، وسواد اللون الذي يعاني منه الشاعر تنعكس آثاره من خلال التفاعل اليومي في مختلف منافذ الحياة، تتحداه ويتحداها ويعيش معها صراعاً حاداً .

وتتنوّع أسباب الصراع النفسي وتتعدد لعوامل شتى متباينة منها: عقدة اللون، وهموم حيوية عامة، والواقع الاجتماعي وما ينضوي تحته من تفاصيل .

فنرى الألم النفسي ينتشر في أعماق الشاعر، يشع على مساحتين أو عالمين، عالم الانتماء إلى القبيلة بفعل رابطة الدم، وعالم الصراع النفسي داخل ضغط الانتماء " ولذا نجد الألم قد احتل الصدارة في النفس، وكثيراً ما كان هذا التمزق يتمخض عن انسلاخ الشّاعر وتمرده على القبيلة، وتحوله من الجماعة إلى الذات المنفردة، بخاصّة عند الصعاليك الذين سرعان ما تجمعوا وانضوا تحت لواء الصعلكة " (إبراهيم، بلا ت: بلا ت: ص 80) .

ودخل الصعلوك في صراع نفسي بين شقين من ذاته شق الصعلوك وشق قبلي .

الأول ينفر من سلّم قيم القبيلة ولا يأبه بلومها له على ما قام به، أما الشق الثاني فيمثله الرجل رمز القبيلة وواضع قيمها ومنظرها وحاميها، وفي النهاية يبدو أنّ الشق الصعلوك تغلب من ذاته وفي ذلك دلالة على صراع داخلي وتجاذب وغليان بين القيم والنزعات الذاتية وهذا الصراع نتيجة ما عانى من ظلم وقهر في بيئته، فلولا تلك الفطرة السليمة لما حدث صراع داخل الذات، ولما انقسم الصعلوك على نفسه في مأساة تهدد استقرار شخصيته ليثبت أنه لا يمثل الجانب الشيطاني في حركة الصعاليك العرب كما رأى د. يوسف خليف (يُنظر، خليف، 1959: 330)، بل هو على خلاف ذلك إنسان كبقية الناس تأتي عليه أحيان من الغضب فيثور مدافعاً عن كيانه في مجتمع لم يكن ليأخذ له حقه مهما فعل، وفي جانب آخر من الصراع النفسي نجد أنّ المرء تتنازعه هموم وآلام شتى باعثها قبلي، وقبلي اجتماعي، وفردي على صعيد العلاقات الاجتماعية، أو عوادي الزمن والذكريات الماضية، فتتحفز النفس لاستقبال الهموم والقلق والأرق والألم لذلك نرى أن بواعث الهموم ومنافذها متعددة، ففي الجانب القبلي نجد الشنفرى، في صراعه مع قومه ردّ فعل لعدم استجابتهم لمطالبه المتمثلة بجدهم في عظائم الأمور، فضلاً عن تشرده وكونه أصبح طريد جنايات، ذلك كله شكّل هاجساً رئيساً لصراعه والهموم التي صار أليفها حيث يقول :

وَإِلفُ هُمومٍ ما تَزالُ تَعودُهُ عِياداً كَحُمّى الرَبعِ أَو هِيَ أَثقَلُ
إِذا وَرَدت أَصدَرتُها ثُمَّ إِنَّها تَثوبُ فَتَأتي مِن تُحَيتٍ وَمِن عَلُ

(الشنفرى، 1964: 54) .

وهذا طرفة بن العبد يتعرّض لصراع نفسي حين يتعرّض للظلم من أقاربه بالذات وعدم إعانتهم له على أمور الحياة يتألم نفسياً ويشعر بصراع نفسي مرير، ولاسيما هو برئ فيما يقول ولم يقترف ذنباً :

وَظُلمُ ذَوي القُربى أَشَدُّ مَضاضَةً عَلى المَرءِ مِن وَقعِ الحُسامِ المُهَنَّدِ

(ابن العبد ، 1900: 94) .

وتنتاب امرؤ القيس حالات من الهمّ والكدر والصراع النفسي من ذكريات الماضي وضياع المملكة فعاش يعاني من غربة نفسية حادة حيث يقول:

ظَلَلتُ رِدائي فَوقَ رَأسِيَ قاعِداً أَعُدُّ الحَصى ما تَنقَضي عَبَراتي

(امرئ القيس، 1969: 78) .

وهذا عبيد بن الأبرص يقع تحت وطأة الظلم والحرمان في حياته فيعيش صراعاً داخلياً عنيفاً ويندب بعد موته يرى في ذلك غمطا لحقوقه وهو حي، فتشتد معاناته ويقع أسير صراعه وغربة نفسه حيث يقول:

لَا أَعرِفَنَّكَ بَعدَ المَوتِ تَندُبُني وَفي حَياتِيَ ما زَوَّدتَني زادي

(ابن الأبرص، ب. ت. 48) .

أما الأسود بن يعفر فقد عانى صراعاً رهيباً إثر حرمان نعمة البصر فقد آلمه نفسياً وأحس بظلام الحياة وقد كان فيما سبق يهدي الآخرين ويقودهم، فأسقط معاناته وصراعه النفسي على حسن المقاداة، وفقد توازنه فعبّر عن ذلك بقوله :

قَد كُنتُ أهدي ولا أُهدى فَعَلَّمني حُسن المَقادة أني أفقدُ البَصَرا
أَمشِي وأقبعُ جُنّاباً ليَهدِيني ظنإن الجنيبةَ مما يَجشمُ الغَدرا

(ابن يعفر، 1970: 37) .

وعانى عنترة العبسي صراعاً نفسياً مؤلماً عندما انطلق في مواجهة مأساته الاجتماعية من الواقع ولم يحبّذ الهروب إلى الوراء في تلك المواجهة، بل عمد إلى إثبات الذات داخل الكيان الاجتماعي الذي رفضه وأنكر حضوره ضمن الأسياد، وظل يصارع المظالم التي سلطت عليه دونما فرار أو مقاطعة فيعيد اعتباره واعتبار أخوته بين قومه وعشيرته في ظل التمييز الطبقي الذي يتمثّل في عدم الاعتراف بالمساواة بين السادة والعبيد في المجتمع الجاهلي الذي تحكمه قيم ومعايير ثابتة لا يكاد يحيد عنها (يُنظر، بو بعيو، ب.ت : 30 – 32) .

وقد تأثّر عنترة تأثيراً عميقاً جرّاء هذا العرف الجائر الذي يسلب العبيد أبسط حقوقهم الطبيعية، ونشأ صراعه وتمرّده ورفض الخضوع للذل والمسكنة، ولم يحتمل حياة العبودية التي ابتلي بها بسبب أمّه الحبشية، وبدأ صراعه من القبيلة وظل مرتبطاً بها ليجبرها على منحه حقّه الشرعي وبلوغ هدفه المنشود المتمثل في نيل حقه المسلوب يقول :

قَد كُنتُ فيما مَضى أَرعى جِمالَهُمُ وَاليَومَ أَحمي حِماهُم كُلَّما نُكِبوا

(شرح ديوان عنترة، 57) .

وهناك موقف آخر عانى منه وهو موقف زوج أبيه التي وشت به عند أبيه فأوجعه ضرباً، ولكنها وقفت حائلاً بينهما لتنقذه من الضرب المبرح، بيد أنّ الموقف أثّر فيه نفسياً كما أثّرت السياط في جلده فما كان منها إلا أن بكت، وصور عنترة ذلك قائلاً:

أَمِن سُمَيَّةَ دَمعُ العَينِ مَذروفُ لَو أَنَّ ذا مِنكِ قَبلَ اليَومِ مَعروفُ

العَبدُ عَبدُكُمُ والمالُ مالُكُم فَهل عَذابُكِ عَنّي اليَومَ مَصروفُ

(ابن شداد، 1964: 266) .

ومجّد شاعر آخر يحاور نفسه عندما يرى ضرورة ملحة لذلك نتيجة للحزن والصراع الداخلي المهيمن عليه والناشئ عادة من بعد الأحبّة وفراقهم، وفي ذلك يقول امرؤ القيس :

سَما لَكَ شَوقٌ بَعدَما كانَ أَقصَرا وَحَلَّت سُلَيمى بَطنَ قَوٍّ فَعَرعَرا

كِنانِيَّةٌ بانَت وَفي الصَدرِ وُدُّها مُجاوِرَةٌ غَسّانَ وَالحَيُّ يَعمُرا

(امرئ الفيس، 1969: 59) .

خاطب الشاعر في هذه الأبيات نفسه التي امتلأت شوقاً وخيم عليها الحزن، فنجده قد وصل إلى ذروته لبعد سليمى عليه وعدم تحمل فراقها، فالصراع النفسي جعله يخاطب نفسه ويقيم حواراً داخلياً وذلك لإيجاد شريك يخفّف عنه وطأة الهم والصراع الذي ألم به جراء بعد الحبيبة .

ويقول امرؤ القيس في موضع آخر :

قِفا نَبكِ مِن ذِكرى حَبيبٍ وَمَنزِلِ بِسِقطِ اللِّوى بَينَ الدَخولِ فَحَومَلِ

(المصدر نفسه، 1969: 110) .

صراعه النفسي جعله يتخيل أنّ له أصحاباً لا وجود لهم إلا في مخيلته، حاورهم وطلب منهم الوقوف معه على الديار لمشاركته همومه وآلامه بالبكاء معه على فقدان الحبيبة وخراب الديار .

وهناك نوع آخر من الصراع الداخلي الذي يجعل الشاعر يذهب إلى ديار المحبوبة التي أصبحت خراباً آملاً أن تطفئ النار المشتعلة في صدره، نار الفراق والفراغ يقول عنترة بن شداد:

يا دارَ عَبلَةَ بِالجَواءِ تَكَلَّمي وَعَمي صَباحاً دارَ عَبلَةَ وَاِسلَمي

(ابن شداد، 1964: 148) .

صراعه النفسي جعله يخاطب دار حبيبته بالجواء ويطلب منها أن تتكلم وتخبره عن أهلها ما فعلوا، فهو لم يجد أحداً لكي يخاطبه فبدأ بمخاطبة الحجارة الخرساء، وهذا مؤشّر على صراعه الداخلي وشدّة معاناته .

أما النابغة الذبياني فقد تعرّض لصراع نفسي حادّ وهو يتذكّر ميّة التي رحلت عنه دون رجعة، واختفت في عيونه للأبد، ولم يبق من ذكرها غير دارها التي يخاطبها وهو حزين فيقول :

يا دارَ مَيَّةَ بِالعَلياءِ فَالسَّنَدِ أَقوَت وَطالَ عَلَيها سالِفُ الأَبَدِ

(النابغة الذبياني،1968: 9) .

ويمكن القول بأنّ الشاعر الجاهلي استطاع التعبير عن الصراع الذي في داخله فلجأ إلى الحوار ليخرج ما في نفسه من أوجاع وآلام .

أما طرفة بن العبد فإنه يشكو صراعاً نفسياً أليماً يجترح مشاعره عبر زفرات حادة تبرز الألم والحرقة الموجعة والغربة الدامية التي تعصف بكيانه وقد شبّه نفسه بالأسير لما مر به من ألم وقلق وصراع نفسي فيقول :

وبِتُّ أرعى النّجمَ لا أطعم الكرى كأني أسير طائر القلب خافقه

يعالج أغلال الحديد مكبّلاً وقد عدن بيضاً كالثّغام مفارقه

(ابن العبد، 1900 : 144) .

وهذا معبد بن زرارة ينادي أخاه لقيطاً وهو في أسره معبّراً عن صراع نفسي أليم كاد أن يودي بحياته بعد أن تسرب إليه اليأس والخيبة وعدم إطلاق سراحه وتجري المساومة على فدائه ويبقى في أسره، فيضرب عن الطعام ويصاب بالهزال فكانت منيته وفي ذلك يقول عامر بن الطفيل :

قضينا الجَوْن من عبس وكانت منية مَعبد فينا هُزالاَ

(ابن الطفيل، 1963: 103) .

كان من أشد مواجع القبيلة أن تعيّر بهزيمتها وأسر رجالها في حين تفخر القبيلة الأخرى بانتصاراتها وتفوقها وكانت لها في ذلك عادات وتقاليد متبعة بإطلاق سراح الأسرى (يُنظر، جاد المولى وآخرون،1361: 173) .

ومن خلال استقصائنا للنصوص الشعرية الخاصة بالأسر نجد أنّ الأسر يتبعه ذل الاغتراب القسري من حمى العشيرة، وقد صور لنا السليك بن السلكة غربة صرد رجل من بني حزام صحبه السليك وأسره قوم من مراد وخثعم، فبكى صرد لوقوعه أسيراً وكشف عن صراعه النفسي متألماً لابتعاده عن (بلاء مقاعس) كما يسمّيها وقد استنقذه السليك :

بَكى صُردٌ لَمّا رَأى الحَيَّ أَعرَضَت مَهامِهُ رَملٍ دونَهُم وَسُهوبُ

وُخَوَّفَهُ رَيبِ الزَمانِ وَفَقرُهُ بِلادَ عَدُوٍّ حاضِرٍ وَجَدوبُ
وَنَأيٌ بَعيدٌ عَن بِلادِ مُقاعِسٍ وَإِنَّ مَخاريقَ الأُمورِ تُريبُ

(ابن سلكة ، 1984: 44 – 45) .

إنّ الصراع النفسي الذي جعل الأسير يكشف مرارة الأسر بكائه حيث تتداعى الأفكار والذكريات في مخيلته وتتفاقم الآلام النفسية بعد محنة الأسر وهو يعيش لحظات قلقة من حياة الأسر الصعبة حيث غربته عن أهله ووطنه .

وهذه صورة اليأس التي ظهرت عند الشاعر عبد يغوث بن صلاءة الحارثي تدعو إلى الإحساس بالألم من شدّة اليأس الذي تسرّب إليه والصراع النفسي المنبثق من أسره وهو ينادي لإنقاذه وتخليصه من الأسر يقول :

فَيا راكِباً إِمّا عَرَضتَ فَبَلِّغَن نَدامايَ مِن نَجرانَ أَن لا تَلاقِيا
أَقولُ وَقَد شَدّوا لِساني بِنِسعَةٍ أَمَعشَرَ تَيمٍ أَطلِقوا عَن لِسانِيا
فَإِن تَقتُلوني تَقتُلوا بِيَ سَيِّداً وَإِن تُطلِقوني تَحرُبوني بِمالِيا
أَحَقّاً عِبادَ اللَهِ أَن لَستُ سامِعاً نَشيدَ الرُعاءِ المُعزِبينَ المَتالِيا
وَتَضحَكُ مِنّي شَيخَةٌ عَبشَمِيَّةٌ كَأَن لَم تَرَ قَبلي أَسيراً يَمانِيا

(الضبي، 2000: المفضلية : 30) .

ظهرت معاناة الشاعر وصراعه في رثائه لذاته من خلال الأبيات التي تدل على استحالة العودة إلى قومه وإلى حياته السابقة .

محنة الأسر وصورة اليأس تكررت في صياغات مختلفة أضافت طابعاً مأساوياً متنامياً مع الأداء الموسيقي الحزين الذي طغى على القصيدة مما أدّى إلى التعاطف مع الشّاعر والتأثر لحالته النفسية وصراعه الحاد، ومهما يكن فالشعر الجاهلي يبقى مرآة تعكس تلك الحياة التي تكمن فيها طموحاتهم وآمالهم وآلامهم وشاهداً أميناً على جزء من معاناتهم في صراعهم من أجل إقامة فردوس للحياة عبر وقفتهم في احتدام الضغوط النفسية والاجتماعية، والقبلية، والإنسانية.

وهناك الصراع النفسي الذي ينتاب شخصية الشاعر المجبولة على قيم معينة وبين نفسه التي تهدده بالتخلي عنها أو تكمن في باعث آخر هو التضاد بين ما جبل عليه واتخذه مساراً له في حياته والمجتمع الذي رأى في ذلك المسار خروجاً على المألوف ويتجلّى هذا الصراع في أسلوب ابتدعه الشاعر يتمثل بالعاذلة التي جردها من نفسه، فأسقطها على زوجه اللائمة، وفي ذلك يقول حاتم الطائي:

أُشاوِرُ نَفسَ الجودِ حَتّى تُطيعَني وَأَترُكُ نَفسَ البُخلِ لا أَستَشيرُها

(الطائي، 1920: 246) .

يبدو أنّ اللائمة أو العاذلة قناعاً يتخفى الشاعر خلفه ويرمز به إلى القبيلة كي لا يصطدم بها مباشرة، ويقي نفسه من مخاطر التعرض لها، فالصراع النفسي عند حاتم هو الكرم الذي تمسك به لتأكيد شخصيته بما يحقق له موقفاً متميزاً في مجتمعه ؛ لأنّ صراع الحياة في ميداني الخير والشّر، النور والظلام، والعسر واليسر، الكرم والبخل، وغيرها صراع أزلي ينعكس تأثيره على الإنسان، ولذا نجده في صراع مع نفسه من خلال خصائص وميزات يمتلكها يحاول إثباتها ليدلل على أصالتها عنده ينبئ عنها معدنه وجوهره، فأصالة الكرم عنده تدفعه للإنفاق والبذل .

فالبذل عنده بما لا غنى عنه عن نفس مطمئنة راضية اعتقاد أكبر في نفس البدوي على أداء واجب لابدّ منه، وهو سجية تنبئ عن المروءة، وتنطق من الإيمان العميق بفضيلة هذا العمل (القيسي، 1964 : 126 – 127) .

وتقضي الحياة في الكثير من مواقفها أنماطاً من التعامل تثير قلق الإنسان ليعيش في صراع نفسي شديد بسبب من عوامل شتى انبثق منها عذل المرأة في منافذ الحياة المختلفة وخاصة الزوجية، فهي عاذلة ولائمة بصيغة قاسية انعكست على شعر الشعراء الذين تعرضوا إلى لومها وتقريعها .

فهذا عروة بن الورد يصور لنا صراعه وحالته النفسية على عاذلته فيقول:

أَقِلّي عَلَيَّ اللَومَ يا بِنتَ مُنذِرٍ وَنامي وَإِن لَم تَشتَهي النَومَ فَاسهَري
ذَريني وَنَفسي أُمَّ حَسّانَ إِنَّني بِها قَبلَ أَن لا أَملِكَ البَيعَ مُشتَري
أُحاديثَ تَبقى وَالفَتى غَيرُ خالِدٍ إِذا هُوَ أَمسى هامَةً فَوقَ صُيَّرِ
تُجاوِبُ أَحجارَ الكِناسِ وَتَشتَكي إِلى كُلِّ مَعروفٍ رَأَتهُ وَمُنكَرِ
ذَريني أُطَوِّف في البِلادِ لَعَلَّني أُخَلِّيكِ أَو أُغنيكِ عَن سوءِ مَحضَري
فَإِن فازَ سَهمٌ لِلمَنِيَّةِ لَم أَكُن جَزوعاً وَهَل عَن ذاكَ مِن مُتَأَخِّرِ
تَقولُ لَكَ الوَيلاتُ هَل أَنتَ تارِكٌ ضُبُوّاً بِرَجلٍ تارَةً وَبِمِنسَرِ

(ابن الورد، 66 – 68) .

رسم الشاعر صورة تعكس صراعه الداخلي وموقفه من العاذلة محاولاً إقناعها بصواب مسلكه، وما اختطه لنفسه لإسكات صوت عذلها محاولاً نصحها متشبثاً بموقفه، ولا تبقى سوى الأحاديث التي تخلّده إذا ما مات وانتهى وصار هامة تجاوب أحجار الكنائس بالصدى، وتشتكي إلى كل معروف أو من تنكر، وإن في غزوه إغناء لها عن المسألة .

ونلمس صورة أخرى شكّلها دريد بن الصمة حيث تلومه عاذلته على خوض الحروب، مما أتاح له فرصة الكشف عن حالته النفسية وصراعه النفسي لإثبات شجاعته وفروسيته فيقول :

أَعاذِلُ إِنَّما أَفنى شَبابي رُكوبِيَ في الصَّريخِ إِلى المُنادي
أَعاذِلُ عُدَّتي بَدَني وَرُمحي وَكُلُّ مُقَلِّصٍ شَكِسِ القِيادِ

(ابن الصمة،1891: 19) .

لقد شكل صورة فنية من الألفاظ الصريحة: العذل والصريخ والمنادي، لنسمع الصورة التي تبرز شجاعة الشاعر، ويفخر بها، فقد استوعب انفعاله واحتدام الصراع النفسي مع المسارعة إلى النجدة .

لقد نقل الشاعر الجاهلي أدقّ التفاصيل التي عكستها لحظات انفعالاته الذاتية والاجتماعية القاسية، وما عانى من صراع نفسي هزّه من الأعماق كما حصل للمهلهل عند زيارة قبر كليب، فتعرّض لعذل زوجه التي ترمز إلى القبيلة لمغالاته في رثاء كليب، فشعر بغربة نفسية وصراع داخلي لانقطاعه عن تواصل أداء ما يجب أداؤه نحو أخيه :

أَلا يا عاذِلي أَقصِر لَحاكَ اللَهَ مِن عَذلِ

(المهلهل،1986: 1952: 68).

كما نرى صراعه النفسي في جانب آخر من جوانب التعامل اليومي في الحياة ومتطلباتها حيث يسرف في حزنه على أخيه حتى لا تجد زوجه فسحة ولو ضيقه تنفذ من خلالها لزوجها فتعذله وتنكر عليه رثاء أخيه كليب وندبه، وقد تكون الزوج قناعاً يرمز إلى القبيلة التي شغله عنها قتل كليب .

أَنكَرَتني حَليلَتي إِذ رَأَتني كاسِفَ اللَونِ لا أُطيقُ المُزاحا

(المصدر نفسه، 1986: 24) .

نجد العلاقة التي أقامها الزوج الشاعر مع زوجه هي علاقة غير متوافقة مع المجتمع الذي يعيش فيه نلمح ذلك من خلال سخريتها منه وإنكارها له فعاش صراعاً داخلياً وغربة نفسية آلمته .

وهذا صراع من نوع آخر يتجلّى في الضغوط النفسية التي مارستها (الجائرة) عليه للافتراق عن الحق وممارسة الجور، فقد تكون الجائرة الزوج التي جردها من نفسه، أو القبيلة التي تدعوه إلى ممارسات لا يقرّها الشاعر بل ويرفضها، وفي ذلك يقول عامر بن الطفيل :

قَضى اللَهُ في بَعضِ المَكارِهِ لِلفَتى بِرُشدٍ وَفي بَعضِ الهَوى ما يُحاذِرُ
أَلَم تَعلَمي أَنّي إِذا الإِلفُ قادَني إِلى الجَورِ لا أَنقادُ وَالإِلفُ جائِرُ

(ابن الطفيل ، 1963: 575) .

وقد تكون المشكلات الأسرية سبباً في الصراع النفسي الذي يعاني منه الشاعر فهذا كعب بن زهير بن أبي سلمى جعلته يعيش غربة نفسية وصراعاً داخلياً صعباً، وقد أثارت مواجعه وآلمته كثيراً وفي ذلك يقول:

أَلا بَكَرت عِرسي تَلومُ وتَعذُلُ وَغَيرُ الَّذي قالَت أَعفُّ وَأَجمَلُ

(ابن زهير ابن أبي سلمى، 1950: 41) .

المبحث الثاني: الصراع الخارجي (اجتماعي – قبلي – طبقي)

وفي ظل القبيلة والعلائق الاجتماعية وبنيتها التركيبية ومن خلال التعامل المباشر نرى الشاعر الأفوه الأودي يعاني صراعاً نفسياً حين يجد قومه بعيدين عن الرشد، وقد انقادوا للغي فيجد الهوة بينه وبينهم شاسعة، فيحس بغربته وصراعه وفي ذلك يقول:

كَيفَ الرَّشادُ إِذا ما كُنتَ في نَفَرٍ لَهُم عَنِ الرُّشدِ أَغلالٌ وَأَقيادُ
أَعطَوا غُواتَهُمُ جَهلاً مَقادَتَهُم فَكُلُّهُم في جِبالِ الغَيِّ مُنقادُ

(الطرائق الأدبية : د. الميمني، د. ت : 10) .

أما النابغة الذبياني فقد واجه صراعاً ذاتياً وألماً نفسياً عندما لم يستجب قومه لرأيه ولم ينصتوا لنصحه وخالفوه، ومن هنا نشأ الصراع الاجتماعي فقرّر أن يتخلّى عن شؤونهم بعد أن خسروا النصيحة .

نَصَحتُ بَني عَوفٍ فَلَم يَتَقَبَّلوا وَصاتي وَلَم تَنجَح لَدَيهِم وَسائِلي
وَلا أَعرِفَنّي بَعدَما قَد نَهَيتُكُم أُجادِلُ يَوماً في شَوِيٍّ وَجامِلِ

(الذبياني، 1968: 197 . شوي : تصغير شاء الذي هو اسم جمع شاه، وجامل اسم جمع جمل)

ونجد عند لبيد بن ربيعة صراعاً داخلياً يؤلمه حين أنكر على بعض قومه أخلاقهم وطبائعهم المخالفة لطبيعته فضلاً على استهجان الفعل من إغارة على البريء وانقيادهم لغير المؤهّل لقيادتهم، وفي ذلك يقول:

هُمُ قَومي وَقَد أَنكَرتُ مِنهُم شَمائِلَ بُدِّلوها مِن شِمالي
يُغارُ عَلى البَريِّ بِغَيرِ ظُلمٍ وَيُفضَحُ ذو الأَمانَةِ وَالدَّلالِ
وَأَسرَعَ في الفَواحِشِ كُلُّ طِملٍ يَجُرُّ المُخزِياتِ وَلا يُبالي
أَطَعتُم أَمرَهُ فَتَبِعتُموهُ وَيَأتي الغَيَّ مُنقَطِعَ العِقالِ

(ابن ربيعة، 1952: 94) .

الطمل : الأشعث الغبر وهو اللص. منقطع العقال: أي لا يحبسه عن الغي شيء فهو سريع فيه).

وهذا طرفة بن العبد يفصح عن صراعه الاجتماعي وتمرّده نتيجة للمخالفة التي عانى منها من أبناء قومه وقد جبل بعضهم على مخالفة رأيه – وإن كان صائباً – إمعاناً منهم في المخالفة حيث يقول:

إذا ما استوى أمري يُعوَّجُ أمرُهُ وأَعْوَجُ أحياناً فيبدو استواؤُه
يقول إذا قلت لا قال لي بلى مخالفةً في كل شيءٍ أشاؤُهُ

(ابن العبد، 1900م: 135) .

أما الأسود بن يعفر فيؤكّد لنا أنّ صراعه ناتج عن عداوة بينه وبين أحد أقاربه ممن يبدي الشر ويخالف قول الخير، يقول:

إنَّ امرأً مَولاهُ أدنى داره فيما ألمّ وشَرةٌ لكَ بادِي
إن قُلتَ خيراً قال شراً غيرَهُ أو قُلتَ شراً مَدهُ بمدادِ

(ابن يعفر، 1970: ص 32) .

على أنّ أوس بن حجر ذكر لنا صراعه الخفي كان باعثه الفقر والحرمان والذي بدوره أدّى إلى أن يشدّ الرحال إلى سعد بن مالك فيقول :

وَلَمّا رَأَيتُ العُدمَ قَيَّدَ نائِلي وَأَملَقَ ما عِندي خُطوبٌ تَنَبَّلُ
فَقَرَّبتُ حُرجوجاً وَمَجَّدتُ مَعشَراً تَخَيَّرتُهُم فيما أَطوفُ وَأَسأَلُ
بَني مالِكٍ أَعني بِسَعدِ بنِ مالِكٍ أَعُمُّ بِخَيرٍ صالِحٍ وَأُخَلِّلُ

(ابن حجر، 1960: 94 . الحرجوج : الناقة الجسيمة الطويلة، أخلل : أخص، تنبل : أي تأخذ الأنبل فالأنبل من المال).

بينما طرفة بن العبد يعاني من رفض الجماعة له أكثر مما كان يبدي الاستعداد لرفضه للجماعة والانسحاب منهم بالرغم من صراعه النفسي ومعاناته من ظلمهم جراء هضم حقوق أمه في صغره، ويشعر بحزن عميق وصراع اجتماعي يعانيه نتيجة عدم تقبل الجماعة له " لاسيما في المجتمع القبلي القائم على علامات ضيقة " (اليوسف، 1985: 32)، يخبرنا بذلك قائلاً :

إلى أَن تَحامَتني العَشيرَةُ كُلُّها وَأُفرِدتُ إِفرادَ البَعيرِ المُعَبَّدِ

(ابن العبد، 1900م : ص 27) .

إنّ طرفة بن العبد كان يعاني صراعاً اجتماعياً حاداً من تأزم العلاقات مع عشيرته التي رفضته فأحس بوقع الحياة الصعبة التي لم تنصفه ولم ينل منها غير القهر والعذاب والظلم، فإحساسه العميق بالألم والمرارة والصراع الاجتماعي الذي عاناه وآلمه من أقرب الناس إليه جعله يتمرّد عليهم ولا يعرف غير الإقدام وركوب المخاطر ويصبح شخصية منفردة لا يريد لها أن تذوب في كيان الجماعة .

وهذا الشنفرى، يعدّ طريداً بعدما تسور حدور القبيلة، وخرج بمحض إرادته فكان السبّاق إلى خلع نفسه قبل أن تخلعه القبيلة، وبعد ما كثرت جناياته، ولذا أطلق على نفسه (طريد الجنايات) فقد عانى من صراع اجتماعي أليم وفي ذلك يقول :

طَريدُ جِناياتٍ تَياسَرنَ لَحمَهُ عَقيرَتُهُ لأَيَّها حُمَّ أَوَّلُ
تَنامُ إِذا ما نامَ يَقظى عُيونُها حِثاثاً إِلى مَكروهِهِ تَتَغَلغَلُ

(الشنفرى، 1964: 52) .

ويشتدّ الصراع الاجتماعي على صخر الغي لخلاعته فتشتد عليه معاناة النفي والتشرد الدائم فينضوي تحت لواء الصعاليك، فكان وقع الاغتراب وذله قاسياً عليه نتج عنه صراعاً نفسياً عاني منه ونظم ذلك قائلاً :

يَبيتُ إِذا ما آنَسَ اللَيلَ كانِساً مَبيتَ الغَريبِ ذي الكَساءِ المُحارِبِ

(الهذليين، 1965: 2 / 53) .

وهناك الصراع الاجتماعي الأليم الذي يعيشه الإنسان بسبب الظروف الصعبة التي يعانيها تتمثل في معاناة النعمان بن المنذر حين طلبه كسرى للمثول بين يديه، فخرج من مملكته طريداً ودار بين القبائل يلتجئ إليها لحمايته أشبه ما يكون (بالمخلوع)، وقد تقمّص زهير بن أبي سلمى شخصية النعمان وجسد معاناته وصراعه الاجتماعي الذي عاناه وعبّر عن الخلع والنفي قائلاً :

أَلَم تَرَ لِلنُعمانِ كانَ بِنَجوَةٍ مِنَ الشَرّ لَو أَنَّ اِمرَأً كانَ ناجِيا
فَلَم أَرَ مَسلوباً لَهُ مِثلُ مُلكِهِ أَقَلَّ صَديقاً باذِلاً أَو مُواسِيا

(ابن أبي سلمى، 1968: 171) .

وهذا لبيد بن ربيعة يعاني صراعاً اجتماعياً حاداً وحزناً دفيناً لفراق بلاده، ويبكي الديار التي خلت من بعدهم:

بَكَتنا أَرضُنا لَمّا ظَعَنّا وَحَيَّتنا سُفَيرَةُ وَالغَيامُ

مَحَلُّ الحَيِّ إِذ أَمسَوا جَميعاً فَأَمسى اليَومَ لَيسَ بِهِ أَنامُ

(ابن ربيعة، 1952: 293 . سفيرة والغيام : هضبتان)

ويشتدّ الصراع الاجتماعي داخل أفنون التغلبي من موقف قومه إزاءه، حين سألهم أباعر، فخاب أمله فيهم، ولم يتحملوا عنه بما في ذمته من ديات، فسجّل عليهم موقفاً تسرّب من هذا الصراع ومعاناته بعد إحجامهم عن نصرته، فأودع ألمه في هذه الأبيات قائلاً:

أَبْلِغْ حُبَيْباً وخَلِّلْ فِي سَرَاتِهِمُ أَنَّ الفُؤَادَ انْطَوَى مِنْهُمْ عَلَي حَزَنِ
سَأَلْتُ قَوْمِي وَقَدْ سَدَّتْ أَبَاعِرُهُمْ ما بَيْنَ رُحْبَةَ ذاتِ العِيصِ والعَدَنِ
إِذا قَرَّبوا لِإبنِ سَوّارٍ أَباعِرَهُم لِلَهِ دَرُّ عَطاءٍ كانَ ذا غَبَنِ

(الضبي، 2000: المفضلية : 66 . العيص : شجر، الغبن : ضعف الرأي)

وهذا طرفة بن العبد يطلق صرخة مدوية تنبئ عن صراع اجتماعي رهيب وألم موجع من ظلم العشيرة له صغيراً، وتخليها عنه كبيراً يوم ودع الحياة مقتولاً بينهم فسجّل موقفه منهم فبلغ ذروة الصراع النفسي الأليم.

أَسلَمَني قَومي وَلَم يَغضَبوا لِسَوأَةٍ حَلَّت بِهِم فادِحَه
كُلُّ خَليلٍ كُنتُ خالَلتُهُ لا تَرَكَ اللَهُ لَهُ واضِحَه
كُلُّهُم أَروَغُ مِن ثَعلَبٍ ما أَشبَهَ اللَيلَةَ بِالبارِحَه

(ابن العبد، 1900م : ص 114) .

إنّ مواجهات الحياة التي تعرّض لها الشعراء كثيرة بخاصّة ما يحصل ضمن التعامل اليومي في مجابهة الأحداث المختلفة التي تترك أثراً عميقاً وصراعاً داخلياً أليماً في نفسية الشاعر باعثها الضغط القبلي والاجتماعي، فقد وجد الشعراء منفذاً في التعبير عن همومهم وآلامهم النفسية والاجتماعية، وفي ذلك يقول الحطيئة معبّراً عن صراعه الاجتماعي الأليم:

تَمنيّتُ بَكراً أن تكونَ عمارتي وقومي وبَكرٌ شَرُّ تلكَ القبائلِ
إذا قلتُ بكريُّ نَبَوْتُمْ بحاجَتي فيا ليتني من غير بَكْرِ بن وَائِلِ

(ديوان الحطيئة، 1958: 332) .

وهذا ذو الأصبع العدواني يفصح عن صراع اجتماعي أليم ينتابه حين يتألم من ابن عمّه الذي استدار نحو الأعداء مدبّراً مكيدة له للإيقاع به، ولهذا نجد الشاعر يعيش في حالة صراع شديد وتصدع رهيب إذ يقول:

ليَ ابنُ عمٍّ على ما كانَ من خُلقٍ مُختلفانِ فأقْلِيه ويَقْليني
أزْرَى بنا أنَّنا شالتْ نعامتُنا فخالَني دونَه بل خِلتُهُ دوني
يا عمرُو إنْ لا تدعْ شتمِي ومنقَصَتِي أضربْكَ حتَّى تقول الهامةُ اسقُوني

(الضبي،2000: المفضلية : 31) .

ويجد الصراع الاجتماعي والألم سبيله إلى نفس الأعشى من أبناء عمومته باعثه الوقائع اليومية آنذاك، وحروب مستعر أوارها، فيصور واقع القبيلة الأليم والصراع القبلي الذي ألم به، والذي يحرّكه ويؤجّجه أبناء العم على الرغم من دعوة الشاعر المستمرة للصلح فيقول:

مَصارِعُ إِخوانٍ وَفَخرُ قَبيلَةٍ عَلَينا كَأَنّا لَيسَ مِنّا قَبيلُها

(ديوان الأعشى، ب. ت: ق 10) .

ويستمرّ الحطيئة في إبراز الصراع الاجتماعي ويتألّم من أبناء العمّ الذين لم يستجيبوا إلى دعوته لرأب الصدع، فيقول :

بَني عَمَّنا إِنَّ الرِكابَ بِأَهلِها إِذا سائَها المَولى تَروحُ وَتَبتَكِر

بَني عَمَّنا ما أَسرَعَ اللَومَ مِنكُمُ إِلَينا وَلا نَبغي عَلَيكُم وَلا نَجُر
وَنَشرَبُ رَنقَ الماءِ مِن دونِ سُخطِكُم وَلا يَستَوي الصافي مِنَ الماءِ وَالكَدِر
غَضِبتُم عَلَينا أَن قَتَلنا بِخالِدٍ بَني مالِكٍ ها إِنَّ ذا غَضَبٌ مُطِر

(ديوان الحطيئة، 1958: 106) .

كان الصراع الاجتماعي يدور بين الشّاعر وأبناء عمه، فكانت الصراعات مستمرة تنشب بينهم لأبسط الأسباب، وكان يسجّل تلك المواقف والمشاهد مفصّلاً فيها، لذلك جاءت أشعاره تعبّر عن تجربة امتازت بالخصب والغنى ومثلت أعلى درجات الارتقاء الفني والتصويري (يُنظر، اليوسف، 1985: 17) متّخذاً من مشهد الصراع الاجتماعي جزءاً مهماً في لوحته الفنية، ووسيلة من وسائله التعبيرية في إبراز معاناته والكشف عن آلامه وهمومه النفسية والاجتماعية .

أما يزيد بن الجهم فقد تعرّض لصراع داخلي وتألم وهو يقول: تباحثني هذه القبيلة عن حالي، وتسائلني عن وجوه غناي، ومصارف مالي " فيرد عليهم بقوله:

تُسائِلُني هَوازِنُ أَينَ مالي وَهَل لي غَيرَ ما أَنفَقتُ مالُ
فَقُلتُ لَها هَوازِنَ إِنَّ مالي أَضَرَّ بِهِ المُلِمّاتُ الثِقالُ
اِضَرَّ بِهِ نَعَم وَنَعَم قَديماً عَلى ما كانَ مِن مالٍ وَبالُ

(الحماسة ، ب. ت : 2 / 233) .

ففي إجابته عن إنكارهم استفهام عن طريق النفي حيث يقول لهم: ومالي مالٌ إلا ما أتلفه ووضعته حيث اخترته، والمعنى أنه لا مال له إلا ما أنفقه وقدمه لا ما يسأل عنه، ويبرز معاناته وصراعه القبلي في إجابته عندما قال: مالي أفناه ما نزل بي من الملمات الفادحة، والنوائب المجحفة، وأضرَّ به قولي في جواب السؤال والودَّاد، نعم، إيجاباً لهم واسعافاً بمقترحاتهم، وهذه اللفظة وبال على الأموال معروف فيما تقادم من الأزمان .

وهذا الشاعر تأبّط شرّاً يعاني صراعاً اجتماعياً حاداً وفق نسق يفصله عن السائد والمألوف في نظام القبيلة ويلحقه في ركب الشعراء الصعاليك الذيم لفتوا انتباه الناس إليهم شكلاً وسلوكاً، فلا عجب أن يكون تأبّط شرّاً من أغربة العرب كما أطلق عليه؛ لأنه كان ذا لون أسود عانى منه ووضع قدمه من خلاله على طريق التمرد ظهر من خلال سلوكه النافر الذي جعله منفلتاً من شروط المجتمع القبلي وأعراف القبيلة ويعاني صراعاً داخلياً شديداً، حيث يقول في مطلع قافيته الشهيرة المؤلفة من ستة وعشرين بيتاً:

يَا عَبْدُ مَالَكَ مِنْ شَوْقٍ وَإِبرَاقِ وَمَرَّ طَيْفٍ عَلَى الأَهْوَالِ طَرَّاقِ
يَسري عَلى الأَينِ وَالحَيّاتِ مُحتَفِياً نَفسي فِداؤُكَ مِن سارٍ عَلى ساقِ

(يُنظر، الضبي، 2000: 14).

لقد جعل الطيف يصل متخطياً المصاعب، حافي القدمين، واطئاً الثعابين، وهذا دليل على قوة الباعث لدى الطيف، ومنه لدى صاحبة الطيف، والحديث عن الطيف في الشعر العربي مألوف، لكن غير المألوف أن تستفتح به القصيدة، إذ كانوا يستفتحون بالوقوف على الأطلال، والنسيب، ولكن حياة شاعرنا المرتبطة بالمعاناة والصعلكة تبيح له ذلك ما يجعل هذا الحديث ملطفاً.

من هنا نجد أنّ نصّه الشعري " ذو بنية مغايرة لبنية القصيدة الجاهلية في شكّله والمضمون، منفلتاً كصاحبته من شروط المجتمع ونائياً بعيداً بعيداً عن الشرائط التاريخية التي فرضتها أعراف القبيلة الجاهلية، حيث تقوم قصيدته الفائحة بأريج الصعلكة على المغامرة بحثاً عن بنية مغايرة لبنية الواقع (المدفوع) بقانون القبيلة وأعرافها " (شياع، 2006: 3) .

وهذا عنترة بن شداد العبسي لم يستطع على امتداد حياته التخلص والتحرر من عقدة الدونية، وظل الشعور بالنقص والذلة مرافقاً لنفسه يشقى به، ويتألم حتى لحظة مقتله، وظل الصراع النفسي يؤلمه، فقد كان مدركاً لضعف مكانته في بني عبس إذ عرف وأيقن أنهم لن يثأروا من قاتله، بل سيذهب دمه هدراً، وكأنه لم يكن، ولن يشفع له عندهم أنه كان المدافع عنهم، والحامي لحياضهم بسيفه ولسانه، فقال:

إِنَّ اِبنَ سَلمى فَاِعلَموا عِندَهُ دَمي وَهَيهاتَ لا يُرجى اِبنُ سَلمى وَلا دَمي

(ابن شداد، 1964: 68) .

فقصة عنترة مثلت صراعاً طبقياً قاسياً لم ينته إلا بتحرره من جور العبودية وقسوتها وبتحرر أخوته، ولكن سواد لونه ظلّ شاهداً على عبوديته واعتلال نسبه، ومن ثم فمهما قدم من خدمات للقبيلة وما سجّله من مواقف، واعتراف قومه بشجاعته وإقدامه وسمو أخلاقه، لم تخلصه من الإحساس بالصراع الداخلي الذي ظلّ مسيطراً على نفسه، وجعله دائم الشعور بعقدة الدونية أو عدم التحرر النفسي، ذلك الصراع مع النفس ظل ملازماً له رغم خفّة حدّته كلما سجّل موقفاً أو نصراً للقبيلة .

وهذا صراع آخر يعاني منه كعب بن زهير لما نفي من عبد الله بن غطفان بسبب مزرد بن ضرار لعدم ذكره له في شعره، وأشاد بأهله وأحس بآلام الصراع القبلي الداخلي في نفسه وهو في غطفان وفي ذلك يقول:

دِيارُ الَّتي بَتَّت قُوانا وَصَرَّمَت وَكُنتُ إِذا ما الحَبلُ مِن خُلَّةٍ صَرَم
فَزِعتُ إِلى وَجناءَ حَرفٍ كَأَنَّها بِأَقرابِها قارٌ إِذا جِلدُها اِستَحَم
أَلا أَبلِغا هذا المُعَرِّضِ أَنَّهُ أَيَقظانَ قالَ القَولَ إِذ قالَ أَم حَلَم
هُمُ الأَصلُ مِنّي حَيثُ كُنتُ وَإِنَّني مِنَ المُزنِيّينَ المُصَفّينَ بِالكَرَم

(ابن زهير، 1950: 63 – 67) .

ومن المعروف أن كعب بن زهير ولد في غطفان، ونشأ فيها وترعرع ولكن نفسه كانت تنازعه إلى مغادرة غطفان إلى مزينة التي ينتمي إليها في النسب، لذلك عانى صراعاً قبلياً داخلياً عنيفاً وميلاً إلى الانعتاق من القيود التي فرضها عليه أبوه، وأن يخوض مشكلات واقعها القبلي ويذود عنها بدافع من الالتزام لوصايا أبيه.

وهذا النابغة الذبياني يحاول أن يرأب الصدع بين عامر بن صعصعة، وزرعة بن عمرو وبني ذبيان، ولكن قبيلة بني عامر أغارت على ذبيان فتألم النابغة وعانى من صراع قبلي ونفسي رهيب لذلك يقول:

أَلا يا لَيتَنِي وَالمرءُ مَيتُ وَما يُغنِي مِنَ الحِدثانِ لَيتُ
غرمت غرامة في صلح قيس ولم يتفاسدوا فيما بنيت
فَأَبلِغ عامِراً عَنّي رَسولاً وزرعة إن دنوت وإن نأيت
أعاتب سيدي قيس جميعاً وأخبر صاحبيّ بما اشتكيت

(الذبياني، 1968: 70 – 71) .

أما الشنفرى، فقد عانى من صراع قبلي ومن تصدع الآصرة القبلية لحاجات تعددت في حياته أوجبت أن يتحرّر من إسار تلك الرابطة وقطع صلاته بمقومات انتمائه للقبيلة وفي ذلك يقول:

فَقَد حُمَّت الحاجاتُ واللَيلُ مُقمِرٌ وَشُدَّت لِطِيّاتٍ مَطايا وَأَرحُلُ
لَعَمرُكَ ما في الأَرضِ ضيقٌ عَلى اِمرِئٍ سَرى راغِباً أَو راهِباً وَهوَ يَعقِلُ

(الشنفرى، 1964: 27 – 28) .

إنّ الشاعر تتنازعه هواجس قلقه تنسجم مع حالته النفسية المضطربة وصراعه النفسي الداخلي عندما تصدعت الآصرة القبلية جراء الوشايات الكاذبة التي أدت بحياة الشاعر إلى التشرد والاغتراب خوفاً من العقوبة بعدما أضمر له قومه ما يخشى عليه منهم، أحس بأن الغرباء أقرب إليه منهم.

وهذا عمرو بن قميئة يعاني من قبيلته فيقول:

أُولَئِكَ قَومي آلُ سَعدِ بنِ مالِكٍ فَمالوا عَلى ضَغنٍ عَلَيَّ وَإِلغافِ
أَكَنَّوا خُطوباً قَد بَدَت صَفَحاتُها وَأَفئِدَةً لَيسَت عَلَيَّ بِأَرآفِ
وَكُلُّ أُناسٍ أَقرَبُ اليَومَ مِنهُمُ إِلَيَّ وَإِن كانوا عُمانَ أُولي اِلغافِ

(ابن قميئة، 1972: 48 ق 7 . ألغف عليه: إذا كثر عليه الكلام القبيح الغاف : نبت ينمو من الينبوت إلا أنه أعظم منه).

إنّ الارتحال عن منازل القبيلة والإقامة في منازل غيرها من بواعث القلق والصراع النفسي، فارتحال عمرو بن قميئة عن قومه ترك أثراً عميقاً في نفسه فقد أفصح عن ميله إلى أباعد أحسنوا إليه وانصرافه عن أقاربه الذين حقدوا عليه وأجبروه على الارتحال عنهم، وبالرغم من آلامه وتشرّده وصراعه النفسي فإنّ وشيجة الدم التي تربطه وإياهم لم تنقطع فيحن إلى أرضه، ويشتاق إلى قومه ويظلّ متعلّقاً بقومه فهم أظفاره ودعائمه يلوذ بهم ساعة الشدة ولابدّ من أن تعود المياه إلى مجاريها في يوم ما فيقول:

عَلى أَنَّ قَومي أَسلَموني وَعُرَّتي وَقَومُ الفَتى أَظفارُهُ وَدَعائِمُه

(المصدر نفسه، 1972: 49 ق 8) .

ويبدو أنّ الصراع الخارجي يعدّ جزءاً مهماً في لوحة الشاعر الجاهلي إذ كانت الصراعات مستمرة تنشب بين الأفراد والقبائل لأبسط الأسباب، فكان الشاعر يسجّل تلك المواقف والمشاهد .

إنّ الصراع الطبقي الذي عاناه عنترة جعله يذرف الدموع مدراراً ويكثر من الشكوى نتيجة ما لحقه من جور عشيرته وقومه وظلمهم له، وتزداد معاناته النفسية قسوة وألماً حين يخبرنا إنه ما قصر يوماً في واجباته نحوهم، وكيف أنه كان يفديهم بنفسه، ويقدّم حياته لرفع شأنهم وجعلهم يتيهون فخراً ومجداً أمام القبائل الأخرى، ولكنه يقابل دوماً بالجحود والنكران، وفي ذلك يقول:

إِذا فاضَ دَمعي وَاِستَهَلَّ عَلى خَدّي وَجاذَبَني شَوقي إِلى العَلَمِ السَّعدي

أُذَكِّرُ قَومي ظُلمَهُم لي وَبَغيَهُم وَقِلَّةَ إِنصافي عَلى القُربِ وَالبُعدِ
بَنَيتُ لَهُم بِالسَّيفِ مَجداً مُشَيَّداً فَلَمّا تَناهى مَجدُهُم هَدَموا مَجدي
يَعيبونَ لَوني بِالسَّوادِ وَإِنَّما فِعالُهُمُ بِالخُبثِ أَسوَدُ مِن جِلدي
فَوا ذُلَّ جيراني إِذا غِبتُ عَنهُمُ وَطالَ المَدى ماذا يُلاقونَ مِن بَعدي

(شلبي، 1985م: 62) .

إنّ عنترة يموج بين تصوير صراعه النفسي المرير ومعاناته النفسية من قومه وبين الفخر بنفسه، فالشاعر هو مصدر هذا المجد الذي حظيت به قبيلته وليس العكس وكأن القبيلة لم تكن ذات شأن من قبل، وبذلك فإنّ فضله عليها كبير، وفي ذلك ما يخفّف من أزمته النفسية وصراعه الداخلي والخارجي.

ولنا أن نتصور حقيقة الصراع النفسي الأليم والمعاناة التي تعتري الصعلوك المخلوع حين يجد نفسه منبوذاً في الصحاري والفيافي فيعلن القطيعة، وإعلان البديل خارج إطار القبيلة، إنه هروب يمتزج بالرفض، وصراع نفسي يرفض القيم التي لم تعد تنسجم وطموحاته وحريته وفي ذلك يقول الشنفرى:

أَقيموا بَني أُمّي صُدورَ مَطِيَّكُم فَإِنّي إِلى قَومٍ سِواكُم لَأَمَيلُ
فَقَد حُمَّتِ الحاجاتُ واللَّيلُ مُقمِرٌ وَشُدَّت لِطِيّاتٍ مَطايا وَأَرحُلُ
لَعَمرُيَ ما في الأَرضِ ضيقٌ عَلى اِمرِئٍ سَرى راغِباً أَو راهِباً وَهوَ يَعقِلُ

(للشنفرى، 1964: 9) .

أراد الشاعر أن يبرز معاناته ويكشف عن صراعه النفسي وإحساسه بالهوة التي تفصله عن قومه، لذلك اختار قوماً ليسوا من بني جلدته ليوحي من وراء ذلك بمدى المعاناة والصراع النفسي الذي جعله يفضل التشرد في الصحراء واللجوء إلى البديل حتى ولو كانت حيوانات مفترسة؛ لأنّ فيها خصالاً لا تتوافر في بني جنسه من ذلك يقول:

وَلي دونَكُم أَهلَونَ سيدٌ عَمَلَّسٌ وَأَرقَطُ زُهلولٌ وَعَرفاءُ جَيأَلُ
هُمُ الرَهطُ لا مُستَودَعُ السِرِّ ذائِعٌ لَدَيهِم وَلا الجاني بِما جَرَّ يُخذَلُ

(الشنفرى، 1964: 9 – 10) .

وهذا عروة بن الورد سيّد الصعاليك يعيش صراعاً داخلياً متأججاً سرعان ما يعبّر عنه تصريحاً لا تلميحاً، علّه يخفف من وطأته على نفسه ويرفض بذلك ما لحقه من احتقار وازدراء جراء صورة أمه الأمة التي جلبت له ذلك الاحتقار فيقول:

هُم عَيَّروني أَنَّ أُمّي غَريبَةٌ وَهَل في كَريمٍ ماجِدٍ ما يُعَيَّرُ

(ابن الورد والسموأل، 1964: 101) .

وهذا الأعشى يشكو صراعاً حاداً وألماً من هوان أمره لغياب قومه عنه حتى غدا أرنباً في نظر الآخرين لكونه غريباً وحين نادى قومه لم ينصروه لاغترابه عنهم، فحاول إبراز حالته النفسية وصراعه الحاد، فقال:

أَراني لَدُن أَن غابَ قَومي كَأَنَّما يَرانِيَ فيهِم طالِبُ الحَقِّ أَرنَبا
دَعا قَومَهُ حَولي فَجاؤوا لِنَصرِهِ وَنادَيتُ قَوماً بِالمُسَنّاةِ غُيَّبا

(الأعشى د. ت : ق 14 / 15) .

أما النابغة الذبياني فيعرض صورة فنية رائعة تكشف الصراع النفسي الاجتماعي الذي يعاني منه وحالته النفسية المتأزمة؛ لأنّ الملك غاضب عليه، وهذا أمر جعله في حزن وقلق وتعب لذلك قدم اعتذاره محاولاً نفي التهمة عنه، نتيجة لقول الوشاة، وفي ذلك يقول:

أَتاني أَبَيتَ اللَّعنَ أَنَّكَ لِمتَني وَتِلكَ الَّتي أُهتَمُّ مِنها وَأَنصَبُ
فَبِتُّ كَأَنَّ العائِداتِ فَرَشنَني هَراساً بِهِ يُعلى فِراشي وَيُقشَبُ
حَلَفتُ فَلَم أَترُك لِنَفسِكَ رَيبَةً وَلَيسَ وَراءَ اللَهِ لِلمَرءِ مَذهَبُ
لَئِن كُنتَ قَد بُلِّغتَ عَنّي خِيانَةً لَمُبلِغُكَ الواشي أَغَشُّ وَأَكذَبُ

(النابغة الذبياني، 1968: 54) .

إنها لوحة فنية ضمت في نسيجها صوراً متعددة، وأنّ الأبيات تنطق بذلك، ابتداء من (أبيت اللعن) التي تقال للملوك عند التحية وهي (دعاء) تنفي أن يأتي الملك أمراً يذم على فعله، مما جعل الشاعر أن يكون مريضاً، فانطلق في البيت الثالث بالقسم لتبرئته مما نسب إليه، وفي النهاية يضع سبب اللوم على الواشي الكذاب .

كما نجد ورود صراعاً نفسياً واجتماعياً مؤلماً وبروزه في نماذج الاعتذار إنما يعود إلى معاناة الشاعر وهو يعتذر للمنذر أمير الحيرة قائلاً:

فَأَهلي فِداؤُكَ مُستَعتِباً ذعَتَبتَ فَصَدَّقتَ في المَقالا
أَتاكَ عَدُوٌّ فَصَدَّقتَهُ فَهَلّا نَظَرتَ هُديتَ السُؤالا
فَما قُلتُ ما نَطَقوا باطِلاً وَلا كُنتُ أَرهَبُهُ أَن يُقالا
فَإِن كانَ حَقاً كَما خَبَّروا فَلا وَصَلَت لي يَمينٌ شِمالا

(المصدر السابق، 1968 : ق 15 / 71) .

إنّ الألفاظ هنا نسجت هذه الأبيات الشعرية الجميلة، وهي التي أثارت المعنى المكثف المبني عن الاعتذار وإظهار الشكوى لإحداث الاستجابة والانفعال بها، ويتضح تأثيرها في المعنى الموحى به، فنحسّ بها بما توحيه من صورة فنية بإضافة ما يبرع فيها الشاعر ويحرص على إيصالها ويجتهد في إظهار قدرته الإبداعية عبر نقله حالة نفسية صعبة وصراعاً مؤلماً يعاني منه.

المبحث الثالث: الصورة الفنية

دراسة فنية تقتصر على الصور البيانية والتضاد لأنّ هذه الصورة أسهمت بشكل واضح في توضيح صور الصراع النفسي، فقد كان لها حضور مميّز في النّصّ الشعري الذي عالج هذه الظاهرة .

وظلت الصورة الفنية مدار اهتمام القدامى والمحدثين، واستثرت بعنايتهم وإن اختلفوا في تحديدها، ولكنها ظلت في نظرهم معياراً فنياً مهماً لتقويم الشعر (يُنظر، ابن طباطبا، 43) .

واستطاع الشاعر الجاهلي ببراعته أن يصوغ لنا أعذب الأشعار بدقة متناهية وأسبغ عليها انفعالاته المختلفة بصدق ويسر دون تكلف يبرز الصورة التي يروم إبرازها في إطار الغرض المقصود إذ هيّأ الشاعر الصور الشعرية لاستقبال ما يثيره الصراع النفسي من ألم وحزن ومعاناة، وقد تنوعت هذه الصور منها:

التشبيه:

على الرغم من الصور الواقعية التي انتشرت في الشعر الجاهلي، فإننا لا نعدم جمالها في تشبيهات رائعة لا تقل في جمالها عن الصور والتشبيهات المجازية، وتنطلق هذه التشبيهات مع ما ينسجم مع الصراع النفسي للشاعر.

فالشاعر الجاهلي لم يكن يعيش بمعزل عن واقعه، بل استمد صوره من ذلك الواقع الذي عاش فيه وشاهده، فكان شعره زاخراً بما حفلت به بيئته من صور ومظاهر تسربت إلى نفسه، وتنوعت بتنوع المواقف والأحداث، فظلت معانيه محصورة في إطار من بيئته إلا أنّ إيحاءات ذكية كانت تنوع في الكثير من قصائده تؤشّر براعته وقدرته الإبداعية في رسم هذه الصورة.

تعرّض طرفة بن العبد لظلم ذوي القربى فيشعر بمرارة الصراع النفسي ولا سيما هو برئ فيما يقول ولم يقترف ذنباً.

وَظُلمُ ذَوي القُربى أَشَدُّ مَضاضَةً عَلى المَرءِ مِن وَقعِ الحُسامِ المُهَنَّدِ

(ابن العبد، 1900م: ص 35 . مضاضة : حرقة) .

نجد أنّ التشبيه هنا يتلاءم مع الوضع النفسي للشاعر وصراعه المرير فيشبّه الظلم بوقع الحسام إمعاناً في تصوير الظلم الذي ناله من عشيرته، فهي لوحة تصور العلاقة المؤثرة بين الشاعر وعشيرته، إنها رسالة تنم عن ضيقه وألمه وخيبة أمله.

كما كان طرفة يعاني صراعاً عنيفاً من رفض الجماعة له أكثر مما كان يُبدي الاستعداد لرفضه للجماعة، والانسحاب منهم بالرغم مما عاناه من ظلمهم جراء هضم حقوق أمه في صغره كما عانى صراعاً عنيفاً إذ لم تقبله عشيرته بسبب شربه الخمر واللهو وأخبرنا عن إبعاده قائلاً:

إِلى أَن تَحامَتني العَشيرَةُ كُلُّها وَأُفرِدتُ إِفرادَ البَعيرِ المُعَبَّدِ

(ابن العبد، 1900م : 27) .

كشف عن صراعه وألمه النفسي حين أبعدته العشيرة مثل البعير الأجرب.

ويبدو أنّ البواعث والأسباب القبلية والاجتماعية والذاتية نتائج تنعكس على سلوك الشعراء فينتابهم الإحساس بصراع نفسي " جراء قسوة الحياة ومعاناتهم منها، جعلتهم يجترون سبلاً يسلكونها للتخفيف من الضغوط التي يتعرضون لها فاتجهوا إلى شرب الخمر " (إبراهيم، د. ت: 98) .

أما أبو طمحان القيسي ، فقد نُفي وأُبعد وبين أن كلاب المجير تعرف ثياب المنفي للمدة الطويلة التي مكث فيها المنفي عند مجيره ويبرز من خلال التشبيه صراعه الحاد ومعاناته النفسية قائلاً:

وقد عرَفَتْ كلابُهمُ ثيابي كأنّي منهمُ ونسيتُ أهلي

(الأصفهاني 11 / 126) .

وهذا عمرو بن شأس الأسدي يشبه صوت صدر زوجه بجرة فارغة إذا ما قرعت صوتت، إذ وظف تفصيل تلك الصورة الشعرية من خلال التشبيه الدقيق حيث يقول:

رَجَعتُ إِلى صَدرٍ كَجَرَّةِ حَنتَمٍ إِذا قُرِعَت صِفراً مِن الماءِ صَلَّتِ

(ديوان عمرو بن شاس الأسدي : ق 10 / 79) .

تميّز هذا التشبيه ببراعة الشاعر ومنحه قدرة الاستيعاب النفسي المنبعث من صراعه الداخلي ومعاناته من فقد الحنان، فحالة الشاعر النفسية المتأزمة في تصوير علاقته مع زوجه دلت على خلو صدرها من الحنان وتشبيهه بالجرة الفارغة إذا ما قرعت صوتت .

2- الكناية :

مثلما استعمل الشعراء أسلوب الواقعية في تشبيهاتهم نجدهم قد استوعبوا أسلوب الكناية لقربه من تلك الحياة وأعرافها وتقاليدها وما يجري على مسرح أحداثها.

ومن خلال الصراع النفسي الذي يعانيه الشاعر، والحنين إلى الديار ومعاناة الغربة يتذكر الشاعر أهله ويحن إليهم، فيرسم لهم صورة مشرفة لكونهم أهل الخير والكرم ويبرز صورة الخيل الأصيلة التي تمثل الفروسية يقول عبيد بن الأبرص:

تَذَكَّرتُ أَهلَ الخَيرِ وَالباعِ وَالنَدى وَأَهلَ عِتاقِ الجُردِ وَالبِرِّ وَالطيبِ

(ابن الأبرص، (ب.ت) : 24 . العتاق الجرد : الخيل الأصيلة)

ويتعرّض الأعشى لصراع نفسي رهيب لما يلاقيه في غربته ومعاناة الغريب وما يلاقي من الأذى المميت مكنياً بالعقرب حيث يقول:

أَرى الناسَ هَرّوني وَشُهِّرَ مَدخَلي وَفي كُلِّ مَمشى أَرصَدَ الناسُ عَقرَبا

(الأعشى، 1950: 163) .

إنّ صورة صراعه الحاد تنثر رموزها في الكناية بكلمة (عقربا) السامة .

إما الشنفرى، فقد كنى عن الفراق والرحيل بـ (إقامة صدور المطايا) التي تعني الشروع في الرحيل العاجل حيث يقول :

أَقيموا بَني أُمّي صُدورَ مَطِيَّكُم فَإِنّي إِلى قَومٍ سِواكُم لَأَميلُ

(الشنفرى، 1964 : 27) .

يخاطب الشنفرى، رهطه من أهل أمه ولم يخاطب قومه من أبيه، فالغربة هنا غربتان، الأولى من مجتمع أسياده حيث يفرّ إلى أبناء جلدته، والثانية تتمثل بفراره من تجمع أبناء جلدته إلى وحش الصحراء وهي أفجع غربة .

فالفعل (أقيموا) يعني إيحاء بديعاً لصورة معنوية تستمد خصائصها من الواقع، حيث يعاني الشاعر صراعاً عنيفاً بسبب لونه ونسبه، فهو مقهور مستلب وغربته تتجه نحو آفاق متوحشة فيها ثورة حتى على أبناء الأم .

3- الاستعارة :

إنّ الاستعارة صورة أخرى لهذا الصراع المرير الذي يعانيه الشاعر من شحنت نفسية وما يفيد في إبراز تجربته الشعرية، فقد استطاع امرؤ القيس أن يرسم لنا صوراً توضح ضيقه بالحياة وتبرمه منها بما يشكّله من كلمات في إطار الحالة النفسية المتأزمة والصراع الداخلي الذي يعانيه حيث يقول:

وَلَيلٍ كَمَوجِ البَحرِ أَرخى سُدولَهُ عَلَيَّ بِأَنواعِ الهُمومِ لِيَبتَلي

فَقُلتُ لَهُ لَمّا تَمَطّى بِصُلبِهِ وَأَردَفَ أَعجازاً وَناءَ بِكَلكَلِ

أَلا أَيُّها اللَيلُ الطَويلُ أَلا اِنجَلي بِصُبحٍ وَما الإِصباحُ مِنكَ بِأَمثَلِ

(امرئ القيس،1969: ص 18 . تمطى: امتد . أردف: والى وتتابع . ناء بكَلْكَل: نهض بصدره) .

يتجلّى صراعه الداخلي وتوتره النفسي من خلال استعارته لليل السدول إمعاناً منه في التعبير عن الظلام الشديد الذي لا ينتهي، ولا يرى فيه بصيص أمل، واستطاع أن يرينا ملامح اللون الأسود المتمثل بالليل ليكشف عن حياته القاتمة وصراعه المرير بما يشكله من كلمات وراء المحسوسات اللونية.

كما استعار لليل جسداً يتمطى، وإعجازاً، وكلكلاً ينوء به دلالة على البطء الشديد كما الجمل إذا نهض بصدره يتحول ثقله إلى مؤخرته ولا يستطيع النهوض إلا بصعوبة وبطء.

فقد نقل الشاعر عبر استعارته الناجحة تبرّمه وضيقه وصراعه وقلقه النفسي وعدم انفراج أزمته في استرداد مملكة أبيه الضائعة.

وهذ النابغة الذبياني يفصح عن صراعه المرير والهموم التي عصفت به وامتلأ بها صدره فاستعار قدرة إعادة الغم لليل ليتضاعف الحزن والعقرب على الأذى فيقول:

وَصَدرٍ أَراحَ اللَيلُ عازِبُ هَمِّهِ تَضاعَفَ فيهِ الحُزنُ مِن كُلِّ جانِبِ

عَلَيَّ لِعَمروٍ نِعمَةٌ بَعدَ نِعمَةٍ لِوالِدِهِ لَيسَت بِذاتِ عَقارِبِ

(النابغة، 1968: 44 . أراح : أرجع إليه . عازب : بعيد . همه : غمه وحزنه) .

أما عمرو بن قميئة فقد رسم لنا من خلال صراعه صورة الهموم واستعار لها هيأة ضيوف قائلاً :

وَكُنتُ إِذا الهُمومُ تَضَيَّفَتني قَرَيتُ الهَمَّ أَهوَجَ دَوسَرِيّا

(ابن قميئة، 1972: 63) .

أما الأعشى فقد استعار العقارب تعبيراً عن صراعه الداخلي والشتم المحذوف الذي وجه إليه في قوله :

يُزجي عَقارِبَ قَولِهِ لَمّا رَأى أَنّي أَهابُه

(الأعشى، د.ت : ق 54 ب 24) .

كما وجدنا علقمة الفحل يتناول من خلال صراعه النفسي صورة الشوق المطلق إذ جعل منه ساعوراً (تنوراً) يستعر كبده، كما جعله ناعوراً للماء يدور باستمرار، فصوّره أحسن تصوير لما يحس به من انفعالات، فالماء والنار كلاهما يساعدان الحياة على التواصل، النار في توقدها والماء والناعور في إدامة الحياة فيقول :

لِلماءِ وَالنارِ في قَلبي وَفي كَبِدي مِن قِسمَةِ الشَوقِ ساعورٌ وَناعورُ

(علقمة الفحل، 123) .

4- التضاد:

عدت حالة التضاد من خلال الصورة الشعرية لحالة الصراع النفسي عند الشاعر وإبراز حالته النفسية المتأزمة فلا يمكن تجاهل التضاد في الحياة لما فيها من صراع بين الخير والشر، والقرب والبعد، والرحمة والنقمة، والفرح والحزن، وقدرة على إبراز التأثير في التعبير الجميل، فضلاً عن التأثيرات النفسية في إبراز الفكرة، وما يحتدم كم صراع بين الحلم والحقيقة، وبين الأمل والخيبة وانعكاساتها على الشاعر حيث نجد التناقض في الصورة التي يرسمها الشاعر لإبراز ما يعتمل بأعماقه من صراع داخلي يعانيه في حياته.

فهذا عبد بن الأبرص يبرز شوقه وصراعه الجاد في التعبير عن معاناته وشوقه العارم وزخم التوجه إلى الحبيبة يدفعه هذا الانفعال العاطفي عن شخصه في حالتين متضادتين هما السر والعلن فيقول:

وَبَيتٍ يَفوحُ المِسكُ مِن حُجُراتِهِ تَسَدَّيتُهُ مِن بَينِ سِرٍّ وَمَخطوبِ

(ابن الأبرص، (ب. ت): 25) .

أما المتلمس الضبعي فيرسم من خلال صراعه النفسي وحالة التمزق التي يعاني منها نجد الحيرة تتسرب إلى أعماقه بفعل التضاد الذي يعانيه في اختيار أهله من (مقيم وظاعن) فيقول :

تَفَرَّقَ أَهلي مِن مُقيمٍ وَظاعِنٍ فَلِلَّهِ دَرّي أَيَّ أَهلِيَ أَتبَعُ

(المتلمس الضبعي، 1968: 154) .

أما الصراع في الغربة فيصل إلى حالة نفسية حادة من جراء الأذى الذي يعانيه حاتم الطائي في غربته، فقوله المعروف يتقلب إلى منكر، وإذا ما ابتعد عن وطنه فإنّ (الوصل) يغدو أبتر فيقول :

أَحَبُّ إِلَيَّ مِن خَطيبٍ رَأَيتُهُ إِذا قُلتُ مَعروفاً له قَالَ مُنكَر

(الطائي، 1920: 35) .

كما نجد السواد والعبودية عند أغربة العرب وسودانهم قد شكّلا عقدة نفسية لديهم، فكان التضاد عند عنترة بن شداد واضحاً، قد صرّح عنه في شفاء نفسه بعد أن كان دليل صراع حاد، فكانت الدعوة لعنترة للدفاع عن القبيلة شفاء لنفسه بعد سقمها فيقول:

وَلَقَد شَفى نَفسي وَأَبرَأَ سُقمَها قيلُ الفَوارِسِ وَيكَ عَنتَرَ أَقدِمِ

(ابن شداد، 1964: 215) .

وهذا سحيم بن الحسحاس يعاني صراعاً حاداً جراء عقدة اللون عكست آلامه، فنجد التضاد عنده (السواد – البياض) يتكرر بدافع من صراعه النفسي ليمحو لون سواده بياض خلقه، معبّراً من خلال ذلك أنّ الجمال ليس بالمظهر (اللون) وإنما يعكس في الجوهر (الخلق) الذي أسبغ عليه البياض حيث يقول:

إِن يَكُن لِلسَّوادِ في نَصيب فَبَياضُ الأَخلاقِ مِنهُ نَصيبي

(سحيم، 54) .

ويشير إلى صراعه ومعاناته من خلال عبوديته ليعبّر عنها مادياً وتضادها المعنوي، فإن كان عبداً في كيانه الجسدي فإنّ نفسه حرة ليخلق من التفاؤل المادي تجانساً يوازن فيه صراعه الحاد من جراء حالته ووضعه النفسي المتأزم .

ويظهر التضاد عند السموأل من خلال معاناته، وحالة العرف السائد بكثرة عند رجال القبيلة لما للعدد من أهمية لطبيعة الحياة التي تقتضي الكثرة لخوض الحروب مع القوة في الكثرة من جانب الاحتراز منهم ومراعاة الرهبة ووضعهم في الحسبان عند الإقدام على أي عمل يثيرهم، فنجد في هذا الجانب براعة الرد يتمثل في قوله:

تُعَيِّرُنا أَنّا قَليلٌ عَديدُنا فَقُلتُ لَها إِنَّ الكِرامَ قَليلُ

(السموأل: ق1 / 8) .

التضاد في مواجهة القلة: الكرام، القليل، عزيز، والكثرة في مقابلها الذلة، والتأثيرات النفسية التي يحدثها التعبير في هذه الظاهرة التي يهتم بها العرب آنذاك.

كما استخدم الشاعر حرف (القاف) الحلقي الذي أشاع تجانساً في الصورة عبر معطيات المعنى المتضاد .

وتدخل كلها في صميم الصورة الشعرية وفق الغرض الذي اختاره الشاعر، للتعبير عن حالة الصراع النفسي وما يعتمل بأعماقه، وما يتطلّبه الموقف من إبراز مشاعره عن طريق الصورة التي يرسمها بدقة متناهية.

الخاتمة :

بعد أن نقل لنا الشاعر الجاهلي أدق التفاصيل التي عكسها لحظات انفعاله الذاتية، وما عانى من صراع نفسي هزه من الأعماق إثر الضغوط النفسية التي مورست عليه، فعاش غربة نفسية آلمته فقد توصل البحث لعدد من النتائج وهي:

- إنّ الصراع وأبعاده الإنسانية كان ركناً أصيلاً من القصيدة الجاهلية فبرز الألم النفسي في أعماق الشاعر.
- صورة الصراع والحالة النفسية والتجربة الصادقة التي مرّ بها الشاعر الجاهلي تركت أثراً عنيفاً في نفسه، فوظّف هذه الحالة للتعبير عن معاناته ومشاعره الذاتية.
- برز الصراع النّفسي والاجتماعي عند الشعراء الصعاليك فعاشوا معاناة الغربة النفسية الحادة التي ألمت بهم نتيجة ما عانوا من ظلم وقهر في مجتمعهم .
- انبثق الصراع النفسي الحاد لدى شعراء أغربة العرب الذين عانو عقدة الدونية فكان صراعهم ضد جور العبودية وقسوتها، وظل الإحساس والصراع الداخلي مسيطراً على نفوسهم، ويعد جزءاً مهماً في لوحاتهم الشعرية.
- سجّل الشاعر الصراع الذي يعانيه مفصّلاً المواقف والمشاهد التي يمرّ بها عبر تجربته التي امتازت بالخصب والغنى ومثّلت أعلى درجات الارتقاء الفني والتصويري في لوحات فنية ووسائل تعبيرية فاجتهد في إيصالها وإظهار قدرته الإبداعية عبر نقله حالة نفسية صعبة وصراعاً مؤلماً يعاني منه.

وفي الختام أرجو من الله ﷻ أن أكون قد وفّقت بهذه الدراسة المتواضعة التي ابتغى منها خدمة لتراث أمتنا العظيم فإنّ أصبت فذلك منتهى مناي وأملي، وإن كانت الأخرى فحسبي أني قد بذلت كل ما في وسعي من جهد ومن الله العون والتوفيق .

المصادر والمراجع :

- **القرآن الكريم .**
- إبراهيم، د. صاحب خليل. (بلا ت). الاغتراب في الشعر العربي قبل الإسلام. ط2، مركز عبادي للدراسات والنشر، صنعاء، الجمهورية اليمنية.
- ابن الأبرص ، عبيد. ديوانه. تحقيق حسين نصار، مطبعة مصطفى البابي، ط1 .
- الأعشى الكبير، ميمون بن قيس.(1950م). ديوانه. تحقيق د. محمد محمد حسين، المطبعة النموذجية.
- امرئ الفيس. (1969م). ديوانه. تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر .
- الأنباري، عبد السلام محمد هارون. (د. ت). تحقيق شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات. ط2، مصر.
- بو بعيو ، د. بو جمعة. جدلية القيم في الشعر الجاهلي .
- التبريزي، الخطيب. (1964م). شرح القصائد العشر: تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة .
- جاد المولى ، محمد أحمد. و البيجاوي، علي محمد. و أبو الفضل إبراهيم، محمد. (1361ه – 1942م) أيام العرب في الجاهلية. مطبوعات دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، مصر.
- ابن حجر، أوس. (1960م). ديوانه. تحقيق محمد يوسف نجم، مطبوعات دار صادر، بيروت.
- الحطيئة. (1375ه – 1958م). ديوانه. شرح ابن السكيت والسكري والسجتاني، تحقيق: نعمان أمين طه، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر.
- خليف، د. يوسف. (1959). الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي. دار المعارف بمصر.
- خليف، د. يوسف. دراسات في الشعر الجاهلي،
- الراجحي ، دراسة وتحقيق نافع منجل شاهين: (1986). المهلهل بن ربيعة التغلبي (حياته وشعره) ، رسالة ماجستير مقدمة إلى الجامعة المستنصرية م .
- ابن ربيعة، لبيد. (1952) ديوانه. حققه وقدّم له د. إحسان عباس، الكويت .
- ابن زهير، كعب. (1965). ديوانه. نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب 1950م نشر الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة .

- ابن سلكة، السليك. (1984). دراسة وجمع وتحقيق : حميد آدم تويني وكامل سعيد عواد، مطبعة العاني ط1، بغداد .
- ابن أبي سلمى، زهير. (1968م). ديوانه . تحقيق فخر الدين قباوة، دار الآفاق الجديدة، ط3، بيروت.
- ابن شداد، عنترة. (1964م). ديوانه. دراسة وتحقيق محمد سعيد مولوي، مطبوعات المكتب الإسلامي .
- الشنفرى. لامية العرب.(1964). شرح وتحقيق د. محمد بديع شريف، منشورات دار مكتبة الحياة .
- ابن الصمة، دريد. (شعراء النصرانية قبل الإسلام) (1891م). القسم الخامس، لويس شيخو، مطبعة الآباء اليوسعيين، بيروت نسخة ثانية جمع وتحقيق وشرح خير الدين البقاعي.
- الضبعي، المتلمس. (1968). ديوانه. تحقيق حسن كامل الصيرفي، مطبعة الشركة المصرية القاهرة م .
- الضبي، أبو العبس المفضل بن محمد. (2000). ديوان المفضليات شرح أبي محمد القاسم بن محمد بن بشار الأنباري، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، مصر، ط1 .
- الضبي، المفضل. (1964). المفضليات. تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف بمصر، ط4 .
- الطائي، حاتم. (1920م). ديوانه. تحقيق كرنكو، مطبعة بريل، ليدن،.
- ابن الطفيل ، عامر. (1963م). ديوانه. تحقيق كرم البستاني، مطبوعات دار صادر، بيروت .
- ابن العبد ، طرفة. (1900م). ديوانه . تحقيق مكس سلفسون، مطبعة برطرند .
- عليمات، د. يوسف. (2004م). جماليات التحليل الثقافي الشعر الجاهلي نموذجاً. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان ط1 .
- ابن قميئة، عمرة. (1972م). ديوانه. تحقيق إبراهيم العطية، مطبعة الجمهورية، بغداد .
- القيسي، : د. نوري حمودي. (1384ه – 1964م). الفروسية في الشعر الجاهلي. مطابع دار التضامن، ط1، بغداد .
- المجذوب، عبد اللطيف. (1970). المرشد إلى فهم أشعار العرب، وصناعتها . منشورات دار الفكر، ط2، بيروت .
- ابن منظور(ت 711). لسان العرب. (1956). دار صادر، ودار بيروت للطباعة والنشر، أعاد تصنيفه : يوسف خياط ونديم مرعشلي، بيروت .
- الميمني، عبد العزيز. (د. ت). الطرائف الأدبية. مطبعة دار الكتب العالمية، بيروت، لبنان
- النابغة الذبياني.(1968م). ديوانه. تحقيق شكري فيصل، مطابع دار الهاشم، بيروت.
- هارون ، أحمد أمين. وعبد السلام . نشر شرح ديوان الحماسة ج2، ، ط1، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .
- الهذليين. (1965). ديوان الهذليين . تحقيق أحمد الزين، نسخة مصورة عن مطبعة دار الكتب، نشر الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة م .
- بن يعفر، الأسود. (1970م). ديوانه. صنعه د. نوري حمودي القيسي، مطبعة الجمهورية بغداد سلسلة كتب التراث.
- اليوسفي، د. يوسف. (1985). مقالات في الشعر الجاهلي: دار الحقائق، ط4، بيروت.
- **الدوريات:**
- شياع، محمد عبد الرضا.(2006). سايكولوجية التمرد في شعر تأبط شراً. مؤسسة الحوار المتمدن، العدد 1698.